

كما هي في نظر الجاحظ - سواء بين العقلاء ؛ وربما وقع المعنى الجيد للسوق والنبطي والزنجي . وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورفضها وتأليفها ونظمها . وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر .

وإذا كان الأخذ عند أي هلال ضرورياً ، منها الحسن ومنها القبيح ، فإن الأخذ الحسن هو أن تأخذ المعنى فتكسوه لفظاً جديداً أجود من لفظه الأول . ومن فعل مثل ذلك كان أحق بالمعنى من صاحبه الأول . وروى عن بعض أصحابه أنه قيل للشعبي : إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك ! فقال : إني أجد المعنى عارياً فأكسوه من غير أن أزيد في معناه شيئاً .. والذي يأخذ معنى غيره فيكسوه بألفاظ جديدة ، ويصوغه صياغة جيدة جدير بأن ينسب إليه ذلك المعنى .

ومن أشياح هذه المدرسة أيضاً ضياء الدين بن الأثير ، الذي يقول إنه رأى كثيراً من الجهال الذين هم من السوق أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين . فالعبارة عن المعاني هي التي تخلب بها العقول . وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني ، فإنه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة ، واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء ، لا بتعلم العلم .

ولعلنا استطعنا بذلك القدر من التوضيح أن نكشف عن اتجاه هذه المدرسة النقدية التي ترى أن مظهر الفنية في أعمال الأدباء إنما هو اقتدارهم على الصياغة الجديدة والتعبير الجيد الذي يميز عبارتهم من عبارة غيرهم من أصحاب اللغة . وعمدتهم في هذا فيما نحسب هو مفهوم الفن الأدبي الذي هو فن جميل يحقق هدفه بوساطة العبارة التي هي أداة المحاكاة في هذا الفن أي أن العبارة ركن من أهم الأركان في هذا المفهوم ، ولكنها ليست العبارة أياً كانت ، وإنما هي العبارة الخاصة التي تمتاز بتخير الألفاظ وتنسيق الوحدات التعبيرية ، وتحليلها بالوسائل التي يدركونها بطبيعتهم ، ويفطنون إليها بفطرتهم أو بحاستهم الفنية ، والتي نجد تفصيلها في الدراسات البلاغية وفنونها الجمالية ، وهي أدوات التصنيع في ذلك الفن الإنساني الجميل ، وقد استقاهم النقاد والبلاغيون من نماذجها الرائعة في أعمال الأدباء .